



أول ضريح صوفي في مصر (٢٤٥هـ)

هيثم الكسواني - الأردن

أما عند الصوفية، فلا نزاع على مكانته، يقول القشيري عنه: «فائق هذا الشأن، وأوحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً»^(٣). وأياً كانت ترجمة ذي النون، فقد توفي وأقيم على قبره ضريح، أصبح أول ضريح صوفي أو للصوفية في مصر، كما يذكر ذلك الصوفية أو المهتمون بالآثار في مصر.



وبإقامة هذا الضريح، نشأ عالمٌ -بكل ما تحمله الكلمة من معنى- من الدجل والخرافة والاستغلال والاتجار والشرك، إذ صار الطواف بالقبور والأضرحة كما يفعل بالحج تماماً،

في سنة ٢٤٥هـ، توفي الصوفي الشهير ذو النون المصري، أحد الصوفية الأوائل، وقد اختلف المؤرخون في ترجمته، فقال الحافظ ابن كثير: «ثوبان بن إبراهيم... أبو الفيض المصري، أحد المشايخ المشهورين، وقد ترجمه القاضي ابن خلكان في (الوفيات)، وذكر شيئاً من فضائله وأحواله... وهو معدود في جملة من روى (الموطأ) عن مالك. وذكره ابن يونس في (تاريخ مصر)، وقال: كان أبوه نوبياً، وقيل: إنه كان من أهل إخميم. وكان حليماً فصيحاً.. وقد شكى مرة إلى المتوكل، فأحضره، فلما دخل عليه وعظه، فأبكاها، فرّده مكرماً إلى بلده. فكان إذا ذكر عنده يثني عليه»^(٤).

وذكر الإمام الذهبي شيئاً من زهده وجكمه وما كان من توبته، لكنه نقل عن السلمي في (محن الصوفية) أنه «أول من تكلم ببلدته في ترتيب الأحوال، ومقامات الأولياء، فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم، وهجره علماء مصر. وشاع أنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف، وهجره حتى رموه بالزندقة، فقال أخوه: إثمهم يقولون: إنك زنديق، فقال:

ومالي سوى الإطراق والضميت حيلةً ووُضعي كمي تخت خذي وتذكاري»^(٥).

٣- الرسالة القشيرية، نسخة إلكترونية، «باب في ذكر مشايخ هذه الطريقة وما يدل من سيرهم وأقوالهم على تعظيم الشريعة».

١- البداية والنهاية، نسخة إلكترونية، وفيات سنة ٢٤٥هـ.

٢- سير أعلام النبلاء، نسخة إلكترونية.



وطلب الحاجات من أصحابها، وتقديم الأموال والنذور لها، جزءاً لا يتجزأ من الاعتقاد الصوفي ومن السلوك والممارسة العملية، وشيئاً فشيئاً أصبح لهذه الأضرحة وللمدفونين تحتها من رجالات الصوفية القداسة والتعظيم، وأقوال الصوفية في ذلك أكثر من أن تُحصى.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وقد آل الأمر بهؤلاء الضالين المضلين إلى أن شرعوا للقبور حجاباً، ووضعوا له مناسك حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً سماه (مناسك حج المشاهد) مضاهية منه للقبور بالبيت الحرام...»^٤.

وعلى الزاوية الأخرى أصبحت هذه الأضرحة سبباً لتكسب سدنتها وشيوخ الصوفية، ومصدر دخل لا يدانيه دخل، بل أصبح اختراع قبر أو ضريح أمراً مألوفاً لدى الصوفية من أجل جني الأموال، وقد نقل تقرير صحفي تصريحاً لمسؤول في وزارة الأوقاف المصرية يؤكد فيه أن نحو خمسين في المئة من الأضرحة في مصر زائفة^٥.

وأكد التقرير السابق أنه لا تكاد تخلو مدينة مصرية من أضرحة تُقام حولها الموالد السنوية وتُبدل فيها الأموال بشكل عبثي ودون رقابة صارمة، وأن مظاهر ثراء كبير ظهر على شيوخ طرق صوفية لا تتناسب مع رواتبهم الحكومية والخاصة، كما أن شيخ إحدى الطرق الصوفية كان يرجع إلى مصر محملاً بالأموال بعد إحيائه حفلات المولد النبوي في بلدان عربية مثل ليبيا.

كما أصبحت الأموال والنذور التي تُقدّم للأضرحة «يسيل لها اللعاب»، فقد صرّح الدكتور عبد الهادي القصبي، رئيس المجلس الأعلى للطرق الصوفية في مصر، بأنهم يجمعون ٣٠ مليون جنيه شهرياً من صناديق النذور، مستنكراً قرار وزير الأوقاف المصري برفع صناديق التبرعات من المساجد على مستوى الجمهورية واستبدالها بحسابات بنكية^٦.

لقد أبدع شاعر النيل حافظ إبراهيم -رحمه الله- عندما صوّر لنا حال هذه القبور، والطقوس التي تجري حولها، وما يقدمه لها الناس من أموال طائلة ونذور، والحاجات التي يطلبونها من الأموات المدفونين فيها، في مقابل إهمال

الفقراء الأحياء المستحقين لهذه الأموال، فقال متعجباً مستنكراً:

أحيائنا لا يرزقون بديرهم وبألف ألف تُرزق الأموات
من لي بخط النائمين بخفزة قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجري حولها بحر النذور وثقراً الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تُقضى بها الحاجات

ومن طريف ما يُذكر بشأن الدجل الذي يحصل بسبب هذه المقامات والقبور، وسرقة أموال الناس باسمها، ما عبّر عنه المثل المصري العامي الشهير «ده إحنا دافنيه سوا»، ومناسبته أن شقيقين أو صديقين كان لديهما حمار، أسمياه «أبو الصبر» لشدة ما كانا يستخدمانه ويعتمدان عليه في التنقل والسفر وحمل أمتعتهما عليه.

وبينما هما في الصحراء في إحدى رحلاتهما، نفق الحمار، فحزنا عليه حزناً شديداً، وقاما بدفنه، وأخذا بالبكاء، فراهما الناس على هذه الحالة، فظنوا أن رجلاً صالحاً أو ولياً هو المدفون في هذا القبر، فاستغل هذان الرجلان الموقف وأوهما الناس أن الذي بداخل الحفرة ولي من أولياء الله، ثم قاما ببناء قبة على القبر، ليكتمل المشهد ويصبح الاحتفال «مكتمل الأركان»، وأخذ الناس بزيارة ضريح «الرجل الصالح»

أبي الصبر، وأخذت أموالهم ونذورهم تتدفق عليه. وفي إحدى المرات، نشب خلاف بين هذين المحتالين، فقد كان أحدهما يشك بالآخر بأنه يخونه ويستولي على شيء من الأموال دون علمه، فهدّده بأنه سيطلب من الولي المدفون في القبر بأن ينتقم منه، فضحك الآخر، وسخر من كلامه قائلاً: «نسيت الحمار؟ ده إحنا دافنيه سوا».

٤- تقدّيس الأشخاص في الفكر الصوفي، محمد أحمد لوح، دار ابن القيم، الدمام، ودار ابن عفا، القاهرة، ط ١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ٨٠/٢، نقلاً عن إغاثة اللهفان لابن القيم.

٥- تقرير «الأضرحة الزائفة في مصر تجارة رابحة» موقع بي بي سي عربي، ٢٠١١/٨/٣٠، على الرابط:

https://www.bbc.com/arabic/middleeast/2011/08/110830_egypt_false_shrines

٦- صحيفة الوطن، ٢٠٢١/١١/٧، على الرابط:

<https://www.elwatannews.com/news/details/5791139>

٧- ديوان حافظ إبراهيم، على الرابط: <https://www.aldiwan.net/poem10702.html>